



لا جدال بأن صناعة الخوف هي أحد أكثر السلع رواجاً وفعالية لدى الأنظمة عموماً والسلطية خصوصاً، فعلى مدى التاريخ ازدهرت المصانع السلطوية المنتجة للرعب والخوف، بهدف خلق أنظمة عبودية قسرية أو طوعية، ومع تطور الدولة الحديثة ابتدعت الأنظمة السلطوية أجهزة قمعية صلبة تساندها أجهزة قمعية ناعمة على درجة عالية من الدقة والإتقان، ولم تكن الأنظمة العربية المعاصرة التي أعقبت المرحلة الكولونيالية استثناء في بناء مؤسساتها وتشييد إيديولوجياتها الحاكمة، فمؤسساتها القمعية هي الأكثر فعالية ونفوذاً في تدبير الشؤون الداخلية، الأمر الذي حمل الإمبراطورية الأمريكية على الاستعانة بقدراتها الفائقة في انتزاع اعترافات "الإرهابيين المفترضين" عبر تقنيات الاستجواب المرعبة.

عندما بدأ جدار الخوف بالتصدع مع انطلاق فعاليات ثورات الربيع العربي، تصدعت معه بعض جدران الأجهزة المنتجة للخوف والرعب، لكنها لم تنهر، كما أن القوى الثورية لم تدرك حجم وقوة الجدر واستهانت بصلابتها، إذ واجهت فعاليات قوى الثورة في العالم العربي معضلة حقيقة عبر محاولة الجمع بين فضائل النهج الثوري والنهج الإصلاحي، وتجنب رذائل النهجين، ولذلك التبست مسالك فهم وتفسير "الحدث"، وتكشف الواقع عن ثورة تنشد إصلاح مؤسسات الأنظمة "السلطوية" السابقة دون الواقع في سلبيات التطرف الثوري، والحفاظ على الأمل بإنجاز تغيرات جذرية حقيقة، إلا أن هذا النهج المزدوج كان يمكن أن ينجح في غياب قوى "الثورة المضادة" التي تتحصن في قلب المؤسسات القمعية للدولة وتتمتع بإسناد قوى دولية وإقليمية تخشى أن تتضرر مصالحها أو تخاف أن تطالها حمى الثورات.

من عيوب الثورة الإصلاحية في أطوارها الانتقالية أنها لا تمتلك القدرة والفعالية للتأثير على قوى "الثورة المضادة" المترخصة في أبنية الدولة السلطوية العميقية، التي تعمل من خلال رموزها في النظام السلطاني على إعادة التمويع لإفشال وتخريب الثورة، فعملية اختراق السلطة الانتقالية من قبل محترفي السياسة أو رجال أعمال أو محرري وسائل الإعلام أو أعضاء الأجهزة الأمنية أو العسكرية أو رجال القانون وغيرهم، لا تتطلب جهداً كبيراً للتلاعب بالرأي العام تحت ذريعة حفظ النظام وتأمين الاستقرار.

أوهام الأمن والاستقرار هي السلع الأكثر رواجاً في مصانع العبودية الطوعية، فلا عجب من نجاح الثورات المضادة مؤقتاً في

العالم العربي، فالرعايا يشترون الأوهام طواعية خوفاً من البطش والتنكيل، فمن غرائب طبائع البشر الذين اعتادوا العبودية والقهر أن تحول تلك العذابات إلى رغبة وشغف، بحيث تصبح مفاهيم كالكرامة والحرية والعدالة مقترنة بالخوف والفزع والقلق، ولا يشكل المجتمع العربي استثناء فهي ظاهرة إنسانية متواترة، شهدتها المجتمع الصيني في عهد "ماو" كما جسده الروائية الصينية يونغ تشنغ في روايتها الشهيرة "البجعات البرية"، والروائي البريطاني جورج أورويل في روايته الماتعة (1984).

لقد شغلت ظاهرة الخوف المنتج للقلق من الحرية والدخول في أفق العبودية الطوعية للاستبداد، عدداً كبيراً من الفلاسفة والمفكرين، فقد أفرد إريك فروم كتاباً عن التجربة النازية في ألمانيا بعنوان "الخوف من الحرية"، أما عبدالرحمن الكواكبي فقد كتب "طبائع الاستبداد ومصادر الاستعباد"، وكان إيتيان دو لا بويسى المفكر والأديب الفرنسي في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، قد صنف أحد الكتب الخالدة بعنوان "مقالة: العبودية الطوعية"، تناول فيه طبيعة الإنسان عندما يألف الاستبداد، وكيف تصبح الحرية نوعاً من الهرل الرهيب تدفع بالمرء إلى الدخول برصاً وقناعة في أفق العبودية.

تكشف سياسات الانقلاب على ثورات الربيع في العالم العربي عن تبني استراتيجية "إعادة بناء جدار الخوف"، وتسويق تأمين "الاستقرار"، وفي سياق فهم الثورات المضادة في العالم العربي تعتبر أطروحة جيورجيو أغامبن في كتابه "الكائن المستباح: السلطة السيادية والحياة العارية"، مفتاحاً تفسيرياً لتفهم طبيعة العلاقة بين الحاكم والمواطن، إذ يقرر بأن السيادة تحمل في طياتها القدرة على وضع الحاكم خارج إطار حكم القانون، الأمر الذي ينشئ "حالة الاستثناء" وهي الحالة التي يصبح فيها المواطن تجسيداً لـ "الحياة العارية"، وهو مفهوم يشير إلى أن حياة المواطن وموته يصبحان كليةً رهن سلطة الحاكم، وـ "حالة الاستثناء" بحسب أغامبن ليست تدبيراً موقتاً يُتخذ عند وقوع الأزمات، بل هي القاعدة التي ترتكز عليها العلاقة بين الحاكم والمواطن.

يبدو أن العالم العربي يتوافر على تشابه كبير مع الظروف التي واكتبت كتابة الفيلسوفة السياسية حنة أرنندت كتابها الشهير "أسس التوليدية"، حيث سلطت الضوء على مرحلة هامة من تاريخ البشرية، مع مطلع القرن العشرين الذي شهد ظهور ما يسمى بالتوتاليتارية كنظام سياسي قائم على العنف والإرهاب والتخويف انطلاقاً من أدوات إيديولوجية قادرة على تخدير العقول وتطويق الأجساد، وبالتالي نزع إنسانية الإنسان وتحويله إلى مدافع عن وهمية غاية في العنصرية، فقد تميزت الفترة التي أمضتها أرنندت في كتابة مؤلفها الذي تطلب منها حوالي خمس سنوات، أربع سنوات، بعد سقوط النازية في ألمانيا وأربع سنوات قبل وفاة ستالين بالاتحاد السوفييتي، هي أول فترة اتسمت بالهدوء النسبي بعد حقبة طويلة مليئة بالصخب والتوتر والخوف، لم يتع لجيل "حنة أرنندت" أن يفكر بهدوء في مسار هذه الأحداث المروعة التي طبعت مسار حياة أوروبا على وجه الخصوص، فلا يزال الخوف يجثم على النفوس، وكان لا أحد اقتنع بعد أن ما وقع أصبح في طي الماضي، والعواطف لا تزال ملتهبة جراء مشاعر الألم والحدق والخجل.

إن هذا الجيل الذي تمثله "أرنندت" كتب عليه أن يعيش هول هذه الأحداث دون أن يكون من حقه حينها أن يفكر فيها أو يناقشها، نظراً لما أشاعتة الأنظمة التوتاليتارية من ممارسات قهقرية منظمة لأجل قتل كل حيوية فكرية أو اجتماعية في الإنسان الأوروبي، فبحسب أرنندت: إن أهم ما ترثه إليه الأنظمة الشمولية هو بث الرعب والخوف في نفوس الجماهير من أجل إحكام سيطرتها عليهم، وفي سبيل ذلك فإنه تعمد إلى توظيف فئات الشعب ضد بعضها البعض وتصبح الوشاية إحدى الأدوات الرئيسية لضرب هذه الجماهير من جهة، وضمان عدم قيامها معاً من جهة أخرى.

وتمثل الحملة الدعائية أهمية خاصة في استراتيجية الحركات التوتاليتارية قبل أن تستحوذ على السلطة، حيث تكون مطالبة

بأن تستثمر نفس الأدوات كما هو شأن الأحزاب والحركات التي تحضر في المشهد السياسي للدولة القائمة، وحالما تصل الحركة إلى السلطة وتتوفر لها الشروط الكافية للانتقال إلى النظام التوتاليتاري يتم استبدال الدعاية بالتلقيين الإيديولوجي والإرهاب.

من الصعب جداً في نظر "حنة أرندت" فك الارتباطات القوية بين الحملة الدعائية التوتاليتارية وعمليات الإرهاب المنظم، وإن كانت هذه الحركات تسعى عبر الحملة الدعائية توسيع وعاء قاعدتها فهي لا تراهن بشكل كبير على آليات الإقناع وإثبات مزاعمتها، إذ سرعان ما يتدخل العنف الممنهج ليعطي لهذه الحملة الدعائية مفعولاً قوياً أو ليحل محلها؛ فقد كانت الحركات التوتاليتارية تقدم مشروع رؤيتها كنبوءة تتجاوز قدرات الفهم العادي أو العلمي، فهي وحدها تمتلك فك الغاز الحياة والتحكم في مسار تطورها نحو الكمال، وتسجّب هذه "العلمية النبوية" لحاجات الجماهير التي فقدت كل تعلق لها بواقعها المتردي وفقدت الأمل في المستقبل، فوحدها هذه الإيديولوجية النبوية هي التي يمكن أن تحمل هذا الإنسان الغارق في العدمية والبؤس على أن يستعيد بعض الأمل والثقة في الذات عن طريق الانخراط في خضم هذه الحركة الثورية دونما تساؤل حول الضمانات الموضوعية والواقعية لهذه المزاعم؛ فالجماهير لا تقتنع بالواقع طالما أن الواقع المزري الذي تعيش فيه لا يمتلك أي قيمة مرجعية، بل إن تماسك الحركة التوتاليتارية والانسجام الداخلي الذي يطبع مزاعمتها يقوّيان تعلق الجماهير بمشروعها ويقضي على كل صلة لها بالواقع، ذلك أن الجماهير "المقلعة" إذ تدخل إلى هذا العالم "الطوباوي" بمحض مخيالها تستشعر فيه الأمان وتجد نفسها في منأى عن الضربات التي تكيلها لها ولآمالها في الحياة الواقعية والاختبارات الحقيقية.

التوهم الأهم في نظر "حنة أرندت" في الحملة الدعائية النازية هو ادعاء وجود مؤامرة يهودية عالمية تكون ألمانيا ضحيتها الأولى والعالم بأسره في نهاية المطاف، فقد أخذ النازيون يبحثون عن مبررات وهمية أحياناً أو باصطدام تأويل تعسفي البعض الواقع بالعودة إلى كتاب "بروتوكولات صهيون"، حيث جعلت هذه المبررات الجماهير تطمئن إلى أن أولى الأمم التي اتضحت لها لعنة اليهودي وقاتلته، سوف تتحل مكانه في سيادة العالم، وقد مكن هذا الوهم الجماهير من اكتشاف شكل جديد للهوية والفعالية التاريخية، حيث أن ادعاء النازيين بأن العرق الآري يسمو عن باقي الأعراق الأخرى ولد في نفوس الرعاع والجماهير على حد سواء متعة الانتقام إلى هذه الهوية العرقية، وقوى لدى الناس غريزة التوحد، و من جهة ثانية انصرف كل واحد من الألمان إلى البحث عن طهارة نفسه من كل لوثة يهودية. وحينها اكتشف كل فرد تائه وتابه وبلا جذور في ظل الوضع القائم وسيلة تعريف ذاتي من شأنها أن ترمم احترامه لنفسه ولو بصورة جزئية وأن تمنه الأمان الهمستيري.

وفي روسيا استطاع ستالين أن يخلق ادعاءً وهماً أقرب في درجته إلى الوهم النازي بوجود مؤامرة يهودية، حيث ادعى ستالين بوجود مؤامرة "تروتسكية" للاستحواذ على السلطة، وقد نجح في إقناع الجماهير من خلال اصطدام تأويل لبعض المعطيات الواقعية، وبفضل تعليمات وهمية مثل هذه تمكنت الحركات التوتاليتارية من خلق عالم توهمي متماسك وإنجابي ينافس العالم الواقعي الفوضوي ويصعب إثبات بطلانه، وطالما أن الجماهير استمسكت بهذه الأوهام أصبح من الممكن تبرير كل الأفعال الإجرامية مهما كانت درجات عنفها تتجاوز حدود العقل، هكذا شرع هتلر إبادة اليهود و ستالين في تصفية التروتسكيين.

ترتبط "حنة أرندت" الاعتماد على الإرهاب في علاقته بالحملة الدعائية بحجم الحركة التوتاليتارية؛ فكلما كانت الحركة ضعيفة أو صغيرة زاد اهتمامها بالدعاية والاستقطاب عن طريق الخطاب، أما حينما تقوى الحركة فلا تعود الدعاية ذات أثر فعال ولا تتماشى مع منطق الحركة حيث يتضاءل الاهتمام بالإقناع والنقاش وتقديم الأدلة والحجج للرد على الخصوم واستقطاب

عناصر جديدة، فإذا بلغت سيادة الإرهاب حدتها الأمثل تلاشت الحملة الدعائية، ففي الحالة النازية عندما أصبح شأن الحركة النازية أكبر من كل الأحزاب الأخرى، اقتنع الجميع أنه من المفيد جداً للفرد أن ينتمي إلى الحركة حتى يضمن أنه وسلامة حياته، وقد عمل النازيون على ترسير هذا الخوف في نفوس الجماهير عن طريق الاعتراف العلني وجرائمهم وإصرارهم على تصفية كل المخالفين لتوجهات حركتهم الثورية، فالقاعدة التي اعتمدها النازيون تقول: "من هو ليس معنا فهو ضدنا" جعلت كل فرد موضوع إرهاب محتمل.

في ديار الخوف تتسع "خصوصية اللامتوقع" لتجاوز حذر الدولة حسب برودون، إلى حذر المجتمع الذي قد يتخد شكل رهاب وسوسي، حيث يتبادل المجتمع والسلطة الحذر من مجهول آت غير محدد، مادام المجتمع لا يحكم إلى منظومة حقوقية قانونية تنظم علاقته بالنظام، فالقمع المفرخ للخوف، واللامج بالآنا الاجتماعية، يقتل الآنا الأخلاقية داخل الفرد، فيرتد إلى أحط أنواع الدناءة والخسفة وانتهاز الفرص، والخنوع الذليل للعلاقات التراتيبية "الهيكلية" حيث تتأسس علاقة عبودية.

خلاصة القول: إن ما يشهده العالم العربي اليوم هو حالة من الفزع والخوف، ينطبق عليه مفهوم "الحياة العارية" كما وضعه أغامبن، و"الخوف من الحرية" كما بين فروم، ويتماهى مع "أسس التوليدية" كما بينته حنة أرندت، ويتطابق مع "العبودية الطوعية" كما تصورها لابوسى، ويقترب مع عوالم "البعادات البرية"، لتشانغ، ونبوات (1984) لأورويل، فلا غرابة ولا تثريب على ثورات الربيع العربي فهي لن تكون استثناءً، بعيداً عن الرومانسيات الثورية، فالابتلاء بالخوف متلازم مع التغيير والتحول الثوري.